– «ماذا ستعمل وكيف تعيش؟ والعيش هنا لا بد له من ليرة ورغيف خبز. والنضال أصعدة. والصعيد الأول يعني البقاء على الأرض رغم جميع الظروف الأخرى» (ص ١٢٨).

– «ان الأوان لنجد حلولاً محلية بدل اعتمادنا الدائم على الحلول المستوردة عبر الجسر. هذه أول سبل تنمية الاكتفاء الذاتي؟ صاح المدير: أي اكتفاء ذاتي؟ نعيش بدون العالم العربي؟ هذه روح انفعالية وانعزالية. نحن طلاب وحدة من رأسنا حتى أخمص قدمينا» (ص ٢٣٦).

– «أرض كان الزرع فيها أخضر، ثم حرثته الماكنات واختلطت خضرته بحمرة الأرض بحمرة الأرض دم الفلاحين» (ص ٣٢٦).

– «اليسار على علاته في إسرائيل، يظل النقطة المضيئة التي تبذر فينا الأمل للمستقبل. (ص ١٦٢).

تضيء الرواية في أسئلتها، تعقد الوضع الفلسطيني، بدءاً من مسألة الرغيف والقوت اليومي وصولاً إلى الأمل الكامن في ضمير الغيب. وما بين «الغيب» والرغيف تمتد سلسلة من التحديدات والأسوار، ويظهر الفلسطيني المساوم من وراء الجسر، وتتضح صورة العربي الذي لا يساعد القضية إلا لوأدها، ويتراكم الحصار العربي – الاسرائيلي كي يدفع بالفلسطيني المحاصر إلى مفازة مهلكة أو إلى طريق ضلال. وفي تضاعيف الحصار ومضاعفته، يتلمس الفلسطيني حدوده الأولى، ويجتر مرارته اليومية، ويتعرّف على مساحة حزنه الحقيقي، ويحن إلى شرط سوي غائب. تقول الرواية: «بسطاء يحنون للأمان، يعبدون النسل ويشتهون القمح والخبز الساخن. بشر قلوبهم تحن للدفء والاعراس وأفراح المواسم» (ص ١٢٧).

تدفع الرواية في هذه السطور إشكاليتها إلى حدودها القصوى، فتقابل بين اليومي والتاريخي، وبين الفردي والجماعي، وبين النزوع المقاتل والحنين إلى عيش بسيط دافئ، أي أن الرواية لا تتيه في تجريد قاصر وكتابة غمامية بل تبدأ باليومي البسيط، كي تدفعه في مساحة الكتابة إلى المستوى التاريخي الذي لا يعثر على تجريده الحقيقي إلا في التفاصيل اليومية. وفي هذا اللقاء والتعارض تنسج الرواية في كتابتها علاقات الوحدة والتناقض بين التاريخي واليومي في علاقة غير مستقرة، فتارة ينطلق الحماس العاصف للدفاع عن الوطن، وتارة ينطوي الحماس ويذهب الانسان حسيراً يناجي زمنه الضائع وحلمه المفقود: «حين ينحرف المدّ هل تلقي بنفسك في عرض التيار» (ص ٣٤٤).

لا تعرف الحركة التاريخية في نضال الشعوب سبيلاً ملكياً، فهي تتنوس ما بين مد وجزر، دون أن تهجر في نوسانها ما هو جوهري ومستديم. تستعيد «عباد الشمس» لحظة التناقض بين المد والجزر، وتبحث فيها عن اثار التجربة، وتقول إن «حياة البحر في قاعه»، في ذلك اللامرئي في حياة الشعوب، الذي يتفاعل ويختمر في صمت كي ينطلق بعد زمن ويصبح مرئياً. بل يمكن أن نقول، دون أن نفارق قول الرواية، إن حياة الشعوب الحقيقية تتكوّن في المسافة القائمة بين المرئي واللامرئي، في ذلك الصمت الزائف وفي ذلك الاندفاع الذي